

محاضرة الفرقة الاولى قسم تاريخ

تاريخ الدولة الاموية

ا.م.د/ تيسير محمد شادي

عوامل انهيار الدولة الأموية

١- السياسة الخاطئة في الحكم.

لقد كان بنو أمية يعملون على استقرار ملكهم بأي ثمن، فخلطوا بين الترغيب والترهيب، وبين ما يصلح من وسائل العمل وما لا يصلح: أغدقوا الأموال على عدد من الزعماء، واشتروا أصوات بعض المعارضين، ومال بعض الخلفاء إلى المضربة وآخرون إلى اليمنية، فألهبوا الفرقة بين العرب بدل الوحدة وأذكوا نار الحروب بينهم بدل أن يؤلفوا قلوبهم ضد العدوان الخارجي، وحاولوا أن يسكتوا بالقوة والبطش والقمع العسكري، الأصوات التي لا تلتين، والتي تدعو لحكم ديمقراطي، وكذا التي حاولت أن تحل محل السلطة القائمة. ولم يكن الخلفاء والأمراء كلهم على نمط واحد، فقد كان معاوية في معظم أحواله رجل حوار واحتمال، وتخلى معاوية الثاني وهو شاب عن الملك داعياً إلى وضع قضية الحكم شورى بين الأمة. وبذل عمر بن عبد العزيز كل ما في وسعه من جهد ليرجع الأموال المغصوبة إلى ذويها ويوقف العدوان على أهل الذمة بعد إسلامهم ويضرب مثلاً عالياً في النزاهة والحرص على أموال الأمة وحقوقها. وكانت ليزيد بن الوليد دعوة صريحة إلى اختيار من ترضاه الأمة لتدبير أمورها. وبحيط الغموض بنهاية عدد من الخلفاء. فكثيرون ماتوا في ظروف غير طبيعية وفي سن الشباب. ومعظم الخلفاء اتخذوا من سياسة القوة والعنف سبيلاً أساسياً للتعامل. هكذا كان يزيد الأول وعبد الملك والوليد وآخرون. ولما احتضر عبد الملك دعا ابنه ووريثه الوليد وقال: إذا أنا مت فضعني في قبوري ولا تعصر علي عينيك عصر الأمة، ولكن شمر وائتزر، وأليس للناس جلد النمر، فمن قال برأسه كذا فقل بسيبك كذا

٢- النزاع على العرش:

وكان النزاع على العرش بين الأمراء والأدعياء لم يخل أيضاً من صراعات دموية، ولربما أعطى البيزنطيون وهم جيران حكام دمشق دروساً مثيرة لهؤلاء الحكام، فتبهر الذي يتخلى عن عرشه البابوي بالقوة سنة ٧٠٥ يسقط في يد عدوه جستنيان الذي يفتق عينيهِ قبل أن يعدمه مع العاهل ليونصو. وسبق أن جذع أنف جوستينيان الأول هذا في ظروف مشابهة، وكان جذع الأنف مما طبقه بعض ولاة بني أمية في حق عدد من أمراء لواتة بليبيا (فتوح ابن عبد الحكم) واشتهر ليون الثالث معاصر سليمان بن عبد الملك بقسوته على رجال الدين وتعذيبه إياهم.

٣- السياسة المالية الخاطئة:

ولربما كان السياسة المالية من أخطر عوامل انهيار الدولة، فتأرجح السياسة بين نقص العطاء والزيادة فيه بالنسبة للجيش كان من أسباب تقاعس الشام في كثير من الأحيان عن نصره الدولة. والشام كانت عصب هذه الدولة وقلبها النابض وبدونها لم يكن للأمويين أمل في إنشاء نظامهم، فأحرى في استمراره قريباً من قرن. ويصحب عمليات استخلاص الجباية في نواح كثيرة، عنف هذه الدولة وقلبها النابض وبدونها لم يكن للأمويين أمل في إنشاء نظامهم، فأحرى في استمراره قريباً من قرن. ويصحب عمليات استخلاص الجباية في نواح كثيرة، عنف وبطش لا يراعى معه مستوى المعاش ولا سنوات القحط والمجاعة والأوبئة، وعندما وضع عمر بن عبد العزيز الجزية عمن أسلم جاء من بعده فأعادوا الأمور إلى (أصولها). ولابد أن نجد لمجتمع الموالي والعبيد وأدنى فئات السلم الاجتماعي عذره في الانتفاضة ضد السلطة وموالاة الحركات التي تتزعم المناهضة المسلحة للسلطة. وشحن الرجال والنساء والصبيان بعشرات الآلاف من أقطار مفتوحة وحتى من بين الذين قبلوا الإسلام عقيدة وشريعة، أضاف مزيداً من الأسر الساخطة التي تضع يدها في يد أول طارق يناهض شراة الحكام ومظالمهم. وعندما ينكب وال جائر أو متمرّد تنكب كل أسرته وقرباته والمتعاطفين معه، وتصادر أموالهم دون محاكمة ولا محاسبة، وعلى الأبرياء أن يؤدوا ثمن أعمال المذنبين إن كان هم كذلك.

٤- كثرة المعارضين:

والواقع أن أكثر الفئات تدمراً من السياسة الأموية هي فئة المتقنين والقواعد الشعبية المستضعفة وفئة الرحل. وكان العلماء والمحدثون على رأس جماعة المتقنين التي تعارض السياسة الأموية أو النظام الأموي من حيث هو، وفيهم من ضرب أو حبس أو قتل. وقد ضرب عامل المدينة هشام المخزومي، العالم المعروف سعيد بن المسيب لمجرد رفضه بيعه الوليد وسليمان بولاية العهد مع تمسكه بالولاء لعبد الملك. وكان ابن المسيب يرى أن لا بيعه لغير الخليفة مادام حيّاً. ومات مجاهد في حبس الحجاج. أما سعيد ابن جبير فالتجأ إلى مكة محترماً بالمسجد الحرام فأخرجه منه الوالي خالد القسري، ثم أعدم على يد الحجاج. وأمثال هذه النكبات كثيرة.

وفئة الرحل التي تمثل مئات الألوف من العرب الذين احتفظوا بأصالة تقاليدهم وأنفتهم، إنما دخل أصحابها في الإسلام بعد جهد جهيد، حتى لقد صرع عشرات الدعاة والمرشدين بين

أوساطهم وهم يؤدون مهمة سلمية ولا يحاربون. ثم كانت حركة الردة وجهود أبي بكر في إعادة إقرار الإسلام بجزيرة العرب. وخرج من الرحل عدد كبير من المتحمسين للإسلام بعد هذه المحنة، وعدد كبير من القراء فضلاً عن زملائهم من قراء الأمصار. ومن هؤلاء القراء انبثق معظم رواد الخوارج. وبدلاً من خلق حوار مع هذه الحركة والاستماع إلى مطالبها كانت عمليات المطاردة المسلحة التي لم تزد الرحل إلا إصراراً على الانضمام إلى الحركة الجديدة، إذ ما من شك أن مجتمع الرحل وقع تهميشه اتكالا على أعيان المدن وأنصارهم، أي على الطرف الذي استفاد أكثر من غيره من المغامرات وأصبح يمتلك الأراضي الشاسعة ويروج في التجارة أموالاً طائلة ويبني القصور والمصطافات ويحتضن آلاف العبيد.

وصحيح أن من زعماء الرحل من انضم إلى المدن واستفاد من عطايا بيت المال بغير حساب، لكن أغلبية الرحل عاشوا بعيدين عن مواطن الترف وهالهم ما حل بالمجتمع الإسلامي من انحلال أنكروه، وطبيعتهم أن يختاروا شيوخ قبائلهم بحرية، فلما كان النظام الأموي تغير أمامهم كل شيء: ولاية يأتون من جهات أخرى لا صلة لهم بالسكان، وبيت مال تتدفق عليه الأموال بغير حساب وفيها المغصوب والمنهوب من أفقر الفئات، ثم هو ينفق بغير حساب على جهة دون أخرى، وشريعة تداس بالأقدام، فخطب الولاة والخلفاء لا يتحدث في معظمها إلا عما سينال العصاة من عقاب، ولا تهتم بقضايا الجور والعدل، وحاجات السكان من وسائل المعاش، فوجد الخوارج والشيعية وكل الأطراف المناهضة سبيلاً إلى النيل من الحكم القائم، وحاول كل من هذه الأطراف أن يجعل من نفسه البديل، فكان الاختيار النهائي هو الاختيار العباسي الذي فرض نفسه بوسائل جديدة، وذلك أن العباسيين عدلوا عن التعصب القومي، وكانوا بحق أكثر انفتاحاً من بني أمية.

٥- التعصب للعرب:

والحق أن التعصب القومي الذي جعل العروبة والعرب محل تقديس وتفوق في المفهوم الأموي كان من بعض الوجوه ضرورة مؤقتة لتوطيد العقيدة والثقافة الإسلامية. ولكن بالصورة غير اللائقة التي كثيراً ما ظهر بها على مستوى التعامل مع الشعوب غير العربية لم يكن من شأنه أن يضمن للفكر القومي الضيق حياة أطول مما عاشها في ظل الحكم الأموي. وقد كان يمكن لهذا الحكم أن يمتد لفترة أطول، لو قرب بعض العناصر غير العربية والمعروفة بنقاء

عقيدتها إلى مجالات الرأي وحتى بعض المسؤوليات القيادية والإدارية الكبرى دون أن يفقد العرب أغلبيتهم في هذه المجالات عددًا وأهمية. وإذا كان الأمويون لم يفتحوا إلا على بعض العرب دون البعض، فكيف يفتحون على غير العرب في مجال الرأي والسياسة، وهذا فيما عدا حالات معينة ؟

٦- الغاء نظام الشوري:

وكان النظام الأموي ينقصه جهاز استشاري قار حسن الاختيار، بل إن هذا النظام لم يكن له حتى جهاز وزاري يساعد الخليفة على التعرف أكثر ما يمكن على ما يجري من أحوال الأمة. وعندما يستعمل لقب الوزير في هذا العصر فما هو إلا من باب التمثيل والتجوز، كما يرد في النص التالي، لأن الذين كانوا يقومون مقام الوزراء هم الحجاب ورؤساء الدواوين وبعض الأمراء وزعماء القبائل. ثم إن جهاز الاستخبارات أو البريد وشبكة العيون والأرصاد كانت بحاجة إلى تنظيم متواصل لتصل أخبار السكان وتشكياتهم ورغباتهم على حقيقتها إلى السلطة المركزية، وهذا ما توخاه العباسيون لفترة طويلة من حكمهم. وفيما يلي النص المشار إليه آنفًا، وهو يوجز أسباب انهيار الدولة الأموية، على لسان إحدى شخصياتها بعد قيام الدولة العباسية. وسئلت هذه الشخصية ما كان سبب زوال ملككم؟ فأجاب:

"إنا شغلنا بلذاتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا، فظلمنا رعيتنا، فيئسوا من إنصافنا وتمنوا الراحة منا، وتحومل على أهل خراجنا، فتخلوا عنا، وخرجت ضياعنا، فخلت بيوت أموالنا، ووثقنا بوزرائنا، فأثروا مرافقهم على منافعها، وأمضوا أمورًا دوننا أخفوا علمها عنا، وتأخر عطاء جندنا، فزالت طاعتهم لنا، واستدعاهم أعاديونا فتظاهروا معهم على حرينا، وطلبنا أعداؤنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا، وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسبابًا زوال ملكنا ...".